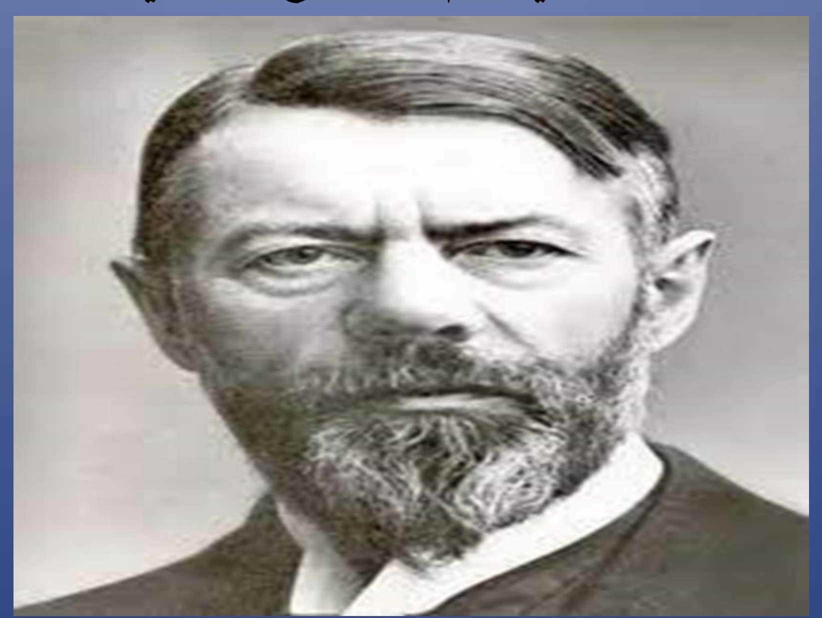
نظرية الفعل الاجتماعي عند

ماكس فيبر

دراسة في علم الاجتماع التأويلي



الدكتور

حسام الدين محمود فياض

٢٠١٨

الناشر مكتبة نحو علم اجتماع تنويري

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الدراسة: نظرية الفعل الاجتماعي عند ماكس فيبر
دراسة في علم الاجتماع التأويلي

تأليف: الدكتور حسام الدين فياض
الناشر: مكتبة نحو علم اجتماع تنويري
الطبعة: الأولى
تاريخ: ٢٠١٨ م

تمهيد:

إذا كانت المنظورات الوظيفية والصراعية تؤكد على أهمية البناء الاجتماعي في تشكيل وتوجيه أفراد المجتمع والتأثير على سلوكهم الإنساني، فإن نظرية الفعل الاجتماعي على الطرف الآخر تولي اهتماماً كبيراً لدور الفعل والتفاعل بين أفراد المجتمع في تكوين تلك البنى.

يبرز دور علم الاجتماع في هذا السياق في استيعاب المعاني التي ينطوي عليها الفعل الاجتماعي والتفاعل، لا في تفسير طبيعة القوى الخارجية التي تدفع الناس إلى نمط معين من الأفعال.

مما يعني أن **ماكس فيبر** ينتمي حسب توجهاته النظرية والمنهجية إلى **علم الاجتماع التأويلي** ***interpretive sociology*** مقابل **علم الاجتماع البنائي**، الذي يهتم بالدرجة الأولى بكيفية قيام الأفراد والجماعات بتأسيس المجتمع وإضفاء معنى عليه ومعايشة الحياة فيه، بدلاً من الاهتمام بكيفية تأثير المجتمع على الأفراد والجماعات. بمعنى آخر تمثل المعاني التي ينتجها الأفراد في تفاعلاتهم جوهر الأطروحة الأساسية

لعلم الاجتماع التأويلي فيمكن اعتباره اتجاهاً في تأويل المعنى أساساً.

يركز هذا التحليل السوسيولوجي على الأنساق الاجتماعية باعتبارها نتاجاً إنسانياً يتشكل عملياً بموجب تفاعلات الأفراد مع بعضهم البعض وهذه الفكرة تقف على الجانب الآخر من الوجود الاجتماعي الذي ركز عليه علم الاجتماع البنائي.

وفي هذا الصدد نجد أن علم الاجتماع التأويلي يشتمل على **ثلاثة مكونات أساسية**، وهي كالآتي:

١. التركيز على تفاعلات الوجه لوجه الفاعلين الاجتماعيين والتواصل البين ذاتي أكثر من التركيز على الوحدات الاجتماعية الكبرى المجردة كالطبقات .

٢. التركيز على المعاني أكثر من الوظائف ولذلك يحاول تفسير وتأويل المعاني التي يلصقها الأفراد بأفعالهم.

٣. يركز على الخبرة المعاشة أكثر من المفاهيم المجردة مثل المجتمع والمؤسسات.

وفي حقيقة الأمر يسعى هذا الاتجاه النظري نحو الابتعاد عن أي نظرة ترى المجتمع كياناً قائماً بذاته مستقلاً عن الأفراد المكونين له والتركيز بدلاً من ذلك تركيزاً فجاً على الأساليب التي يخلق بواسطتها البشر عالمهم الاجتماعي.

بمعنى آخر في **علم الاجتماع التأويلي** يتم التنكر لكل القوى الخارجية التي يمكنها أن تمارس تأثيراً على الأفراد وتوجه سياقات المعنى في تفاعلاتهم باعتبارهم هم من يشكلون الحقيقة الاجتماعية.

يعتمد علم الاجتماع التأويلي على **منهجية** فهم الفعل الاجتماعي وتأويله، مع تفسير هذا الفعل المرصود سببياً بربطه بالآثار والنتائج. ويقصد بالفعل سلوك الفرد أو الإنسان داخل المجتمع، مهما كان ذلك السلوك ظاهراً أو مضمراً، صادراً عن إرادة حرة أو كان نتاجاً لأمر خارجي. ومن ثم، يتخذ هذا الفعل – **أثناء التواصل**

والتفاعل – معنى ذاتياً لدى الآخر أو الآخرين، مادام هذا الفعل الاجتماعي مرتبطاً بالذات والمقصدية.

وهنا ينتقل علم الاجتماع التأويلي من عالم الأشياء الموضوعية إلى الأفعال الإنسانية. أي انتقل من الموضوع إلى الذات، أو من الشيء إلى الإنسان. كما تجاوز المقاربة الوضعية نحو المقاربة الهيرمونيطيقية التي تقوم على الفهم والتأويل الذاتي الإنساني. وبهذا قد أحدث قطيعة ابستمولوجية، ضمن مسار علم الاجتماع، بتأسيس مدرسة الفعل الاجتماعي أو المدرسة التأويلية.

بناءً عليه يعتبر **ماكس فيبر*** من أوائل المفكرين السوسيولوجيين الألمان الذين دعوا إلى تبني منظور

---

* ولد ماكس فيبر في مدينة إرفورت في ألمانيا عام ١٨٦٤ في وسط عائلي بروتستانتي من الطبقة الثرية. فعائلته كانت كبيرة وتحوي صناعيين مختصين بالنسيج، بالإضافة إلى موظفين كبار وأساتذة جامعيين. وكان والده أحد الأعضاء المهمين في الحزب القومي الليبرالي وهو حزب المثقفين والطبقة البورجوازية. وكثيراً ما كان فيبر يرى في بيته شخصيات سياسية وفلسفية كبيرة من أمثال ديلتاي وMommsen وسواهما. وبالتالي فقد نشأ في بيت علم وسياسة وفكر. ومنذ شبابه الباكر راح ماكس فيبر يقرأ كبار المفكرين من أمثال: **ماركس، ونيتشه، وهيغل وكانط**. وكان قارئاً نهما يحب المطالعة كثيراً. وقد شغف بالتاريخ والفلسفة، وعلم اللاهوت، والجماليات، إلخ. ثم واصل دروسه في كلية الحقوق والاقتصاد، وراح يحضر أطروحة جامعية عن المجتمعات التجارية في القرون الوسطى.

الفعـل الاجتمــاعي، وذلــك بتجــاوز التفســير العلمــي نحــو التأويـل الـذاتي والإنسـاني مـن خـلال التركيـز علـى الفعـل الاجتمــاعي بــدلاً مــن البنيــة الاجتماعيــة، والتمييــز بــين

وبعـد أن نـاقش هـذه الأطروحـة أمـام كبـار الأسـاتذة وبحضـور حشـد مـن الطـلاب منحـوه شـهادة الـدكتوراه بدرجـة الشـرف الأولـى. وبـدءاً مـن ذلـك الوقت راحـوا ينظـرون إليـه علـى أنـه أحد كبـار علمـاء الاجتمـاع. ثم عينـوه أستاذاً في جامعة فرايبرغ أولاً (١٨٩٤) وجامعة هايدلبرغ ثانياً (١٨٩٦)، حيث درّس علم الاقتصاد السياسي. عانى فيبر من الانهيار النفسي في عام ١٨٩٨ أدى إلى انسحابه من التدريس الأكاديمي، إلا أن ذلك الانسحاب لم يؤثر على تدفق كتاباته، التي قادم مجموعة كبيرة منها. الفكرة الموحدة لديه كانـت التركيـز علـى العلاقـة المتبادلـة بـين التشـكيلات القانونيـة والسياسـية والثقافيـة فـي جانـب، والنشـاط الاقتصـادي فـي الجانـب الآخـر. وفـي عـام ١٩٠٤ أسس مـاكس فيبر مجلـة سيكون لهـا دور فـي تطـوير نظريـات علـم الاجتمــاع لاحقــاً. وكــان عنوانهــا: **أرشــيفات العلــوم الاجتماعيــة والعلــوم السياسية**. ثم شارك عام ١٩١٠ في تأسيس الرابطة الألمانية لعلم الاجتماع. وبعدئذ انخرط فيبر في العمل السياسي المحض وأصبح معارضاً سياسياً للإمبراطور غليوم الثاني وعضواً فاعلاً في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. وقد شارك بعد الحرب العالمية الأولـى كعضـو فـي الوفد الألمـاني إلـى مـؤتمر السـلام الـذي انعقـد فـي فرسـاي عـام ١٩١٩. وقـد طلبـت منـه السلطات بعدئذ بلورة دستور جديد للجمهورية الألمانية. ثم قدموا لـه كرسـي علـم الاجتمـاع فـي جامعـة ميـونيخ عـام ١٩١٨. ولكنـه مـات بشـكل مفـاجئ ومبكر عام ١٩٢٠. ويلاحظ أن فيبر لم يحترف علم الاجتماع إلا قبل وفاته بعامين، ولقد توفي عام ١٩٢٠ قبل أن يتم مؤلفة الأساسـي الـذي يـدخل فـي ميدان النظريـة الاجتماعيـة وهـو الاقتصـاد والمجتمـع ***Economics and Society*** لذلك كانت إحدى المهام الصعبة في سنة ١٩٢٢ هـي جمع شـتات هذا المؤلف بعد أن تركها فيبر فـي صـورتها المبدئيـة. وهكذا لـم يعـش أكثـر من ثمانية وخمسين عاماً، ولكنـه تـرك بصـماته الكبـرى علـى علـم الاجتمـاع وأصبح أحد كبار الثلاثـة المؤسسين لـه: **أي كـارل مـاركس، إميـل دوركـايم، ماكس فيبر**.

العلوم الوضعية القائمة على التفسير السببي والعلي، والعلوم الإنسانية والثقافية المبنية على انجاز فهم الفعل الاجتماعي وتأويله من أجل الوصول إلى نتائجه ومساراته.

يرى فيبر أن الدوافع والأفكار البشرية هي التي تقف وراء التغير الاجتماعي، وبمقدور الآراء والقيم والمعتقدات أن تسهم في التحولات الاجتماعية. وبوسع الفرد أيضاً – حسب فيبر – أن يتصرف بحرية ويرسم مصيره في المستقبل. ولم يكن يعتقد فيبر كما يعتقد دوركايم وماركس أن للبنى الاجتماعية وجوداً مستقلاً عن الأفراد بل كان يرى أن البنى في المجتمع إنما تتشكل بفعل تبادلي معقد بين الأفعال، ومن هنا فإن من واجب عالم الاجتماع أن يتفهم المعاني الكامنة وراء هذه الأفعال.

وتجدر الإشارة بنا إلى أن فيبر لم يقتصر جهده على التحليل السوسيولوجي بمعناه الضيق، ولكنه أقرب إلى الاهتمام المعاصر في دراسة المجتمع الذي يسعى إلى الإحاطة بتوجهات وأدوات سائر العلوم الاجتماعية، أي

أنه انطلق في فهمه للمجتمع من خلال دراسته وتحليله وتفسير للفعل الاجتماعي والدليل على ذلك تحليله للظاهرة الاجتماعية على مستويات متباينة للغاية، فقد كان باستطاعته أن يمارس التحليل السوسيولوجي لأي ظاهرة من الظواهر الاجتماعية على مستوى الميكرو– سوسيولوجي وفي الوقت ذاته كانت لديه القدرة على التحليل على مستوى الماكرو– سوسيولوجي، مع القدرة الفذة على خلق الروابط وعلاقات عضوية بين مستويي التحليل. إلا أنه على الرغم من اعترافه بأهمية البنى الاجتماعية، فإنه يعتقد في الوقت نفسه أن الأفعال الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد هي تخلق تلك البنى.

وفي النهاية يمكننا القول أن **التأثير الإيجابي** لماكس فيبر على السوسيولوجيا بشكل عام، كان أقوى من أي مفكر سوسيولوجي آخر، ويرجع ذلك للأسباب التالية:

✓ إن أعماله قدمت لنا أمثلة واضحة و رائعة على الدراسة الدقيقة الجادة للمواقف الاجتماعية الملموسة والعلميات التي يجب أن تشكل أساس أية نظرية سوسيولوجية ملائمة.

- ✓ إسهامه الواضح في التأكيد على الدور الذي تلعبه القيم في الحياة الاجتماعية في الوقت الذي ظل فيه علم الاجتماع الوضعي التأكيد على ضرورة أن تظل العلوم الاجتماعية متحررة من القيمة.
- ✓ أنه أوضح كيف أننا نستطيع أن نحقق الكثير باستخدام فكرة النموذج المثالي في العلوم الاجتماعية.
- ✓ كما اسهم بشكل كبير في فهم العليّة الاجتماعية وارتباطها بمشكلة المعنى في الموضوعات الإنسانية.
- ✓ وأخيراً نجد أن فيبر قد أقام نظرياته على أساس افكاره عن الفعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية، إلا أنه بالمقابل انصب اهتمامه على المؤسسات والأبنية الاجتماعية الكبرى من خلال تحليله لأبنية السلطة القانونية والتقليدية والكاريزمية. ويُدخل في سياق الحديث عن السلطة القانونية نمطه المثالي الشهير عن

البيروقراطية الذي استخدمه بكفاءة عالية في تحليله للسطلة التقليدية والسلطة الكاريزمية. ومن خلال هذه الصفحات المكثفة سنحاول استعراض الخطوط العريضة لنظرية الفعل الاجتماعي من خلال العناصر التالية:

١. علم الاجتماع والمجتمع عند فيبر.

٢. طبيعة منهج الفهم عند فيبر.

٣. أنماط الفعل الاجتماعي عند فيبر.

٤. النموذج المثالي عن فيبر.

٥. أنماط السلطة عند فيبر.

٦. تقييم ماكس فيبر.

أولاً - علم الاجتماع والمجتمع عند فيبر:

في معرض مناقشة فيبر لقضية تصنيف العلوم ومكانة علم الاجتماع نلاحظ أنه قد تأثر إلى حد كبير بمنجزات العلوم الطبيعية، التي تجسّدت حوله، والتي تتمثل في تعميق مفرزات الثورة الصناعية وانتشار المناخ العقلاني في التفكير. كما وجدنا في كتاباته اهتماماً كبيراً بالعلم والعقلانية المستندة إليه.

ويعتقد فيبر أن العلم يستطيع أن يساعد البشر بالوسائل التي يتيحها وليس بالغايات، ذلك لأن العلم لا يستطيع أن يدلنا على القيم الحقيقية، ومن ثم فإن الصراع بين القيم مسألة حتمية وبخاصةً في المجتمعات الحديثة التي تتسم بالتعقيد. هذا بالإضافة إلى أنه من المستحيل ترتيب القيم من خلال العلم بالنظر إلى مقياس شامل متفق عليه. وفي إطار ذلك فإن كل ما يستطيع العلم أن يمدنا به هو الوضوح.

وفي حالة علم الاجتماع فإن الوضوح يتجسد فيما يتعلق بسلوكنا من حيث دوافعه وغاياته ونتائجه، ذلك لأن علم الاجتماع يساعدنا على توضيح طبيعة التوجيه

القيمي لأفعال البشر وأنماط القيم التي ينبغي عليهم اعتناقها. هذا بالإضافة إلى أنه يساعد على إيضاح وسائل تحقيق هذه القيم، وتحديد تكاليف نتائج ذلك بالنسبة للقيم الأخرى. يعني ذلك أن علوم الثقافة التي ينتمي إليها (التاريخ وعلم الاجتماع) حسب فيبر تعمل على فهم الإنتاج الإنساني الذي يخلق القيم.

بذلك يؤكد فيبر أن علم الاجتماع هو علم اجتماع تاريخي حينما ينصب اهتمامه بالنتائج الفريدة على المفرد التاريخي، بحيث يكون نمط التأويل الذي يهدف إليه في هذا الإطار التفسير عن طريق تفهم المعنى. وتكون المعطيات التي يحاول البحث عنها في معاني هذا المفرد أو شروطه الواقعية.

بناءً على ما تقدم نجد أن فيبر يركز بدراسته معلى الفعل الاجتماعي الذي يتحقق بالتفاعل بين الذوات والآخرين. ويتخذ هذا الفعل معنى ذاتياً وغرضياً. ومن هنا فقد انتقل ماكس فيبر بعلم الاجتماع من عالم الأشياء الموضوعية إلى الأفعال الإنسانية. أي انتقل من الموضوع إلى الذات، أو من الشيء إلى الإنسان. كما

تجاوز المقاربة الوضعية نحو المقاربة تأويلية التي تقوم على الفهم والتأويل الذاتي الإنساني. وبهذا قد أحدث قطيعة ابستمولوجية، ضمن مسار علم الاجتماع، بتأسيس نظرية الفعل الاجتماعي.

ويعني هذا أن فيبر كان يأمل لعلم الاجتماع أن يحتفظ بميزات العلوم الثقافية والروحية. فضلاً عن ميزات العلوم الطبيعية. وهذه الميزات– كما يذهب فيبر– تكمن في تحقيق ضرب من الفهم، يرتكز على الحقيقة التي مؤداها أن الكائنات البشرية تكون على وعي مباشر وإدراك تام ببناء الأفعال الإنسانية. ففي دراسات الجماعات الاجتماعية– مثلاً– نستطيع أن نفهم الأفعال والمقاصد الذاتية للفاعلين الذين يمثلون أعضاء الجماعات.

وفي النهاية **يعرف فيبر السوسيولوجيا**، بأنها: " **العلم الذي يعنى بفهم الفعل أو النشاط الاجتماعي وتأويله، وتفسير حدثه ونتيجته سببياً** ". ويمكن القول أيضاً " **هي العلم الذي يحاول أن يدرس الفهم التأويلي للفعل الاجتماعي من أجل الوصول إلى تفسير علمي**

لمجـــراه وآثـــاره ". ويشـــتمل الفعـــل الاجتمـــاعي علـــى كـــل مظـــاهر الســـلوك الإنســـاني طالمـــا يضـــفي عليهـــا الأفـــراد معنـــاً ذاتيـــاً، أي الفعـــل الـــذي لـــه معنـــى الـــذي يمكـــن فهمـــه، والمعـــاني هـــي البواعـــث التـــي تحـــرك ســـلوك الأفـــراد وتحولـــه إلى سلوك اجتماعي.

لـــذا لابـــد لنـــا هـــذا الســـياق أن نفـــرق بـــين الفعـــل الاجتمـــاعي وبـــين الفعـــل الإنســـاني. **فالفعـــل الإنســـاني:** " هـــو (فقـــط) ذلـــك الســـلوك أو النشـــاط، الـــذي يمكـــن أن ننسب إليـه قصـد أو معنـى ذاتـي لتبريـر مـا قـام بـه الفاعـل مـن نشـاط ". أمـا **الفعـل الاجتمـاعي** " هـو أحـد أنـواع الفعـل الإنســـاني، حيـــث لـــه خصوصـــية تميـــزه عـــن غيـــره مـــن الأفعـــال، وهـــو يعتبـــر الأســـاس الـــذي تقـــوم عليـــه " السوســيولوجية الفيبريــة "، ويأخــذ صــفة الفعــل الاجتمــاعي، إذا تعلـق معنـاه المقصـود مـن قبـل فاعلـه أو فاعليـه بسـلوك الآخـرين، الـذين يوجهـون حدوثـه". إذاً الفعـل الاجتمـاعي هـو الـذي يتوجـه بسـلوك الغيـر، ويـرتبط بمعنـى مشـترك معـه، فـالمعنى الـذي يفكـر فيـه الفـرد ويقصـده هـو الـذي يجعـل الفعـل الـذي يقـوم بـه اجتماعيـاً. مثـال ذلـك: **إن زيـارة**

شخص ما لشخص آخر هي سلوك اجتماعي أما معنى هذه الزيارة فيمثل في كونها للتهنئة أو للعتاب أو لاقتراض المال أو للتملق.

أما عن مستويات التأويل يؤكد لنا فيبر أن التأويل في العلوم الثقافية يتم وفقاً لمستويات عديدة نميز من بينها المستويات التالية:

- ✓ **المستوى الأول:** وهو الذي يمكن تسميته بالتأويل المتعلق بفقه اللغة وهو يتكون من استيعاب المعنى الحرفي للنص، وذلك من خلال نقد الدراسات والوثائق.
- ✓ **المستوى الثاني:** وهو ما يمكن أن نسميه الأخلاقي أو التقويمي، وهو ما يتكون من تعيين قيمة معينة لموضوع الاهتمام، ثم تأسيس حكم ملائم أو غير ملائم بشأنه. يتدرج هذا التأويل من التقويمات الشعورية والعاطفية في الحياة اليومية حتى المجالات الأكثر تحديداً للمؤسسات والأحكام الأخلاقية.

✓ **المستوى الثالث:** وهو ما نسميه بالتأويل العقلاني الذي يكمن هدفه في أنه يساعدنا على فهم العلاقات ذات المعنى من خلال التفهم بين مختلف عناصر ذات الظاهرة.

وهكذا نجد أن السوسيولوجيا عند فيبر " هي علم بخصوص الفعل الاجتماعي. وهو بنظرته تلك يرفض الحتمية التي يمتدحها ماركس و دوركايم اللذان يحبسان الإنسان ضمن نسيج من الضغوط الاجتماعية غير الواعية، ويعتقد فيبر أن هذه الضغوط وهذه الحتميات لا تعدو كونها نسبية. ليس المقصود قوانين مطلقة، إنما توجهات تترك على الدوام مكانا للصدفة وللقرار الفردي.

أما فيما يخص **تعريف المجتمع** يرى فيبر أنه نتاج لفعل الأفراد الذين يتصرفون تبعا للقيم والدوافع وللحسابات العقلانية. إن توضيح الاجتماعي يعني – إذاً– التنبه إلى الطريقة التي يوجه بحسبها الناس فعلهم. هذا النهج هو نهج السوسيولوجيا التفهمية. وفي هذا السياق يقول فيبر:" **إن ما ندعوه سوسيولوجيا هو علم مهمته الفهم، عن طريق تأويل النشاط الاجتماعي** ".

ويعني هذا أن المجتمع يتكون من مجموعة من الأشخاص الذين يقومون بسلوكيات أو أفعال أو أعمال، وهذه الأفعال هي جوهر علم الاجتماع. فالمقاربة الفيبرية مقاربة فردية، تدرس سلوك الفرد داخل المجتمع، في إطاره التواصلي والتفاعلي. ويعني هذا أن الإنسان كائن واع، يتصرف عن وعي وهدف، ولسلوكه معنى وقصد، على عكس الأشياء التي يمكن إخضاعها للدراسة العلمية. هنا، ضرورة فهم العالم في ضوء أفعال الفرد، وفهم مقاصدها وأهدافها ونواياها ودلالاتها. ويستوجب فهم العالم دراسة سلوك الأفراد داخل المجتمع، ورصد دلالات الأفعال ومعانيها ومقاصدها. ويقترب هذا من البعد التواصلي التفاعلي.

وخلاصة القول، تعد نظرية الفعل الاجتماعي مع ماكس فيبر نظرية سوسيولوجية مغايرة. وتعتبر كذلك تصورا فكرياً مختلفاً اختلافاً كبيراً مع نظرية اميل دوركايم في تشيئ الواقع الاجتماعي **(أي دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء)**. ويعني هذا إذا كان دوركايم يركز على المجتمع، ويدعو إلى دراسته دراسة

علميـة تجريبيـة ووضـعية، وفـق منهجيـة التفسـير السـببي والعلـي، فـإن مـاكس فيبـر يـدعو إلـى دراسـة الفعـل الاجتمـاعي دراسـة تأويليـة، أو فهـم التصـرف الاجتمـاعي الهـادف الـذي يقـوم بـه الفاعـل تجـاه الآخـرين فـي سـياق مجتمعـي معـين. وبـذلك، يـدعو فيبـر إلـى مـنهج الفهـم والتأويـل لمقاربـة الفعـل الإنسـاني المجتمعـي، بعيـداً عـن التفسـيرات العلميـة الرصـينة التـي تتنـافى مـع خصوصـية الإنسان.

ثانياً: طبيعة منهج الفهم عند فيبر:

ظهر منهج الفهم مع ماكس فيبر، بعد أن بلوره فلهلم ديلتاي. ويتسم هذا التوجه المنهجي بالطابع الدلالي والتفهمي والتأويلي، والتركيز على الذات بدل الموضوع. أي دراسة الفرد في علاقته بأعضاء الجماعة التي ينتسب إليها أو علاقاته مع المجتمع في كليته، بالتوقف عند مختلف الدلالات والمعاني والمقاصد والغايات والنوايا التي يعبّر عنها هذا الفعل الإنساني والسلوكي، في علاقته بأفعال الآخرين، ضمن الكينونة المجتمعية نفسها. بذلك يندرج تصور ماكس فيبر ضمن النظرة التفاعلية إلى المجتمع، فالأفراد يؤثرون في المجتمع بأفعالهم الواعية والهادفة، والمجتمع بدوره يؤثر في الأفراد.

وهكذا تسعى المقاربة التفهمية الفيبرية إلى فهم الظاهرة الاجتماعية، باستخلاص دلالات أفعال الأفراد، واستكشاف معانيها ومقاصدها وغاياتها ونواياها. وفي هذا السياق نجد أن فهم الفعل الإنساني – حسب فيبر– ليس مسعى سيكولوجياً، بل هو السعي إلى فهم السيرورة

المنطقيـة التـي تقـود الفاعـل الاجتمـاعي إلـى اتخـاذ قـرار مـا فـي ظـرف خـاص. إذ يتعـين إعـادة تشـكيل المنطـق العقلـي للفاعـل، كمـا ينبغـي، أيضـاً، فهـم الجانـب اللاعقلـي فـي سـلوكه، تبعـاً للأهـداف التـي يتوخاهـا والوسـائط التـي يتوسلها، من أجل التوصل إلى فهم تفسيري للفعل.

فـإذا كـان علـم الاجتمـاع البنـائي يعتمـد علـى المقاربـة الوضـعية التـي تتعامـل مـع الظـواهر الاجتماعيـة تعـاملاً علميـاً موضـوعياً، علـى أسـاس أن الظـواهر الاجتماعيـة مثـل الأشـياء الماديـة، ينبغـي دراسـتها كـالعلوم الطبيعيـة، بعـد الـتخلص – أولاً – مـن الأفكـار المسـبقة، وبنـاء الفرضـيات العلميـة، واللجـوء إلـى التجريـب، واسـتخدام الإحصـاء فـي تحليـل الظـاهرة الاجتماعيـة وتفسـيرها، بغيـة إصـدار القـوانين والنظريـات وتعميمهـا، فـإن فيبـر يعتمـد منهجـاً تأويليـاً يسـتند إلـى الفهـم (دراسـة المعنـى الـداخلي)، والتأويـل (إدخـال الـذات والمرجـع علـى مسـتوى القـراءة). ويعنـي هـذا أن الفعـل الاجتمـاعي أو الفعـل الإنسـاني مـرتبط بثقافـة مجتمعيـة معينـة. وبالتـالي لا يمكـن دراسـة الثقافـة أو الإنسـان مـن خـلال المـنهج الوضـعي، بـل لا بـد

من الاعتماد على منهج الفهم في ذلك. أضف إلى هذا أن الظاهرة الإنسانية مرتبطة بمجموعة من الأسباب، وليس بسبب واحد. لذا يصعب تطبيق المنهج الوضعي على الظاهرة الاجتماعية التي يحضر فيها الإنسان باعتباره فاعلاً ومنفعلاً، وكائناً واعياً ومتغيراً.

يستند منهج الفهم إلى ركيزتين أساسيتين هما: المثال ونسق المعاني. فالمثال إجراء عملي ينظر إلى الظاهرة المجتمعية نظرة كلية، باستخدام الحدس والإدراك المباشر. وفي المقابل ينظر منهج التفسير إلى الظواهر في طابعها الذري، بتفتيتها إلى أجزاء وعناصر. كما أن المثال نموذج عقلي ومنطقي ومثالي، صالح لوصف الوقائع الواقعية المعطاة، بالتركيز على مكوناتها وسماتها وعناصرها، وإبراز خصائصها المشتركة والمميزة والمترابطة فيما بينها. كما يجسد المثال الواقع المرصود، ويختزله في نموذج فكري واضح ومتسق ومنسجم. ومن ثم، فهدف الفهم هو البحث عن معنى العناصر المكونة للواقع الاجتماعي، واستكشاف دلالاتها الرمزية بتأويلها وإدراكها إدراكاً مباشراً. ويعني هذا أن الفهم يدرك

الظواهر المجتمعية إدراكاً سليماً، ويحس بها إحساساً مباشراً، ويدركها دون معالجات تجريبية أو تفسيرية أو إحصائية، ودون أي استدلال أو استنتاج مباشر. وهي تظهر للعقل ظهوراً بديهياً، كما لو كانت يقيناً لا يضيف إليه الاستدلال شيئاً.

أما في ما يخص الركيزة الثانية، فيمكن القول بأن الفعل الاجتماعي يتضمن نسقاً رمزياً، يحمل في طياته دلالات المعنى، ندركها عن طريق الفهم والتأويل، انطلاقاً من تجاربنا وحضورنا الذاتي في هذا العالم. ومن ثم يكون الهدف الأساس هو الوصول إلى وحدة المعنى أو الفكرة التي تتحكم في هذا الفعل، واستجلاء مختلف النوايا والمقاصد والأهداف التي كانت تتحكم في نشأة هذا الفعل أو السلوك الاجتماعي.

ويمكن القول أيضاً بأن منهجية ماكس فيبر تعارض منهجية ماركس، لأن المنهجية الفيبرية تعتمد على الفهم والتأويل، والاهتمام بالفاعل الفردي (الميثودولوجيا الفردية). في حين، تعتبر سوسيولوجية ماركس بنائية، تركز على الفاعل الجماعي، وتعطي للعوامل المادية

أهميــة كبيــرة، علــى أســاس أن البنيــة التحتيــة (البنيــة الاقتصــادية) هــي التــي تــتحكم فــي البنيــة الفوقيــة والايديولوجيــة (الفــن، والــدين، والعــادات التقاليــد، والسياســة). أمـا فيبـر فيرجـع مـا هـو مـادي إلـى مـا هـو دينــي وفــوقي، ويبــدو ذلــك جليــاً فــي كتابــه (**الأخــلاق البروتســتانتية وروح الرأســمالية**)، حيــث بــين أن القــيم البروتســتانتية الكلفانيــة التــي قــوت النزعــة الفرديــة بجعلهــا الفـرد مقياسـياً لتفسـير الكتـاب المقـدس، هـي التـي سـاهمت فـي بـروز الرأسـمالية العقلانيـة. أمـا مـاركس فقـد ركـز علـى العوامـل الماديـة والاقتصـادية فـي ظهـور هـذه الرأسـمالية. وإذا كـان مـاركس قـد ثـار علـى الـدين، فـإن فيبـر قـد دافـع عــن فلســفة الأديــان، وخاصــة البروتســتانتية، دعامــة العقلانيـة والبيروقراطيـة والرأسـمالية والحداثـة الغربيـة. ومـن ثــم، تــدعو البروتســتانتية إلــى ابتغــاء الكســب المثمــر، وتنميــة الرأســمال، وفــق دوافــع ســيكولوجية ومبــادئ أخلاقيــة، مثــل: الحــرص، والشــح، والاســتثمار، وعــدم التبـذير، وحـب العمـل، ولاسـيما أن المـذهب البروتسـتانتي الـذي ظهـر مـع مـارتن لـوثر يمجـد العمـل باعتبـاره غايـة

للحياة وفريضة من الله." إن من لا يعمل لن يأكل " كما قال القديس بولس. لذلك يجتهد البروتستانتي في العمل كي لا تلحقه لعنة الله. وكما تمتاز الأخلاق البروتستانتية بتمجيدها للعمل، تمتاز أيضا بدعوتها إلى التقشف والاستثمار والادخار. وتلك هي الأسس الرئيسية التي قامت عليها الرأسمالية الحديثة. وفي النهاية يرى فيبر أن المذهب البروتستانتي، ولاسيما مذهب " كالفن "، قد خلق ما يسمى " بأخلاق المهنة " المعتمدة على نزعة صوفية تجتهد في جمع النقود واستثمارها في المشروعات التجارية والصناعية، بروح مطمئنة، تعتبر النجاح في الدنيا دليلاً على رضا من الله ورضوان.

ونستنتج مما تقدم بأن منهج فيبر يرتكز على ثلاثة مقومات أساسية هي الفهم والتاريخ والثقافة وذلك بالاعتماد على منهج الفهم في دراسة السلوك الاجتماعي، ورصد أشكال الهيمنة والسلطة، ويعني هذا أنه من مؤسسي نظرية الفهم والتأويل في علم الاجتماع. ويعني ذلك أيضاً أن منهجية فيبر تهدف إلى فهم معنى التفاعلات السلوكية للأفراد داخل المجتمع. أي أن علم

الاجتماع يدرس الفعل الاجتماعي الذي يقصد به مجموعة من الوسائل التي يستند إليها المجتمع للحفاظ على اتساقه وانسجامه، وخاصة الوسائل القانونية والتنظيمية أو الأعمال التي تدفع الأفراد والجماعات التي تعيش نوعاً من الهشاشة إلى العيش الكريم، والانصهار في وحدة المجتمع. وقد تبلور هذا المنهج القائم على دراسة التفاعلات القائمة بين الأفراد في كتابه (**الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**) الذي نشره على شكل مقالين عامي (١٩٠٤-١٩٠٥)، حيث درس فيهما أثر العوامل الدينية في ظهور العقلانية، وكيف ساهم الإصلاح البروتستانتي في نشأة الاقتصاد الرأسمالي المادي. وذلك بالتركيز على العقلانية، باعتبارها مظهراً من مظاهر الحضارة الغربية، فقد جاءت مرافقة لنشوء الرأسمالية (الاقتصاد العقلاني) والبيروقراطية (الإدارة العقلانية). ومن هنا يعتبر المذهب البروتستانتي – حسب فيبر – فعلاً إيجابياً، لأنه المحرك الحقيقي للعقلانية والحداثة والاقتصاد الرأسمالي، فقد أهلته هذه الخصائص لقيادة حداثة كونية وتقديم نظرة عقلانية

لرؤية العالم، وهذا ما جعل فيبر من مؤسسي علم الاجتماع الديني.

ثالثاً- أنماط الفعل الاجتماعي عند فيبر:

يعتبر الفعل الاجتماعي من المفاهيم الرئيسية التي أسهم بها ماكس فيبر في بناء رؤيته للواقع الاجتماعي. ونظراً لأن مفهوم الفعل الاجتماعي يعتبر العنصر الأساسي الذي يشكل جوهر المشروع النظري لماكس فيبر، ولأن مفهوم الفعل الاجتماعي هو نقطة البدء المنطقية عنده، فإننا نجده يطلق اسم الفعل على أي اتجاه أو نشاط إنساني يخلع الفاعلون عليه أو مجموعة الفاعلين معنى ذاتياً. ويعتبر الفعل لا اجتماعياً إذا كان موجهاً فقط نحو سلوك الموضوعات غير الحية. أما الفعل الاجتماعي فنشير إليه بأنه ذلك الفعل الذي يتضمن اتجاهات وأفعال الآخرين، وهو بدوره موجه إليهم. بذلك يشكل الاتجاه الذاتي نحو الآخرين البعد الاجتماعي في الفعل بشرط أن يكون موجهاً نحو سلوك

الآخـرين كمـا ذكرنـا سـابقاً فـي المقارنـة مـا بـين الفعـل الإنساني والاجتماعي.

وهنـا يجـب أن نشـير أن الفعـل يختلـف عـن السـلوك، إذا حاولنـا مقارنتهمـا ببعضـها، إذ يعتبـر السـلوك هـو ذلـك الجـزء مـن الفعـل الـذي يلاحظـه الباحـث حينمـا يسـتنتج دافعـه. أمـا الفعـل فهـو الـدافع والسـلوك معـاً فـي علاقـة الوسـائل بالغايـة. ذلـك لأن أي سـلوك يعتبـر بـلا معنـى بـدون دوافعـه، والـدوافع أيضـاً لا يمكـن تحديـد بـدون سـلوكه. بـذلك يكـون الفعـل الاجتمـاعي هـو الـذي يجمـع بـين الـدوافع الاجتماعيـة والسـلوك. ومـن ثـم فـإذا تنـاول الباحـث الفعـل فـي ذاتـه فإنـه يكـون ذلـك الـذي بـين الـدافع السـيكولوجي والسـلوك الفـردي. ذلـك يعنـي أن السـلوك فـي حـد ذاتـه يعتبـر وحـدة تحليليـة غيـر مكتملـة، تكتمـل أحيانـاً حينمـا يـرتبط الـدافع السـيكولوجي بالسـلوك الفـردي، ليصـبح فعـلاً إنسـانياً انجـره فاعـل. بينمـا يصـبح الفعـل اجتماعيـاً إذا كانت الدوافع أو الغايات ذات طبيعة اجتماعية أساساً.

وتنبثـق أهميـة الفعـل كموضـوع رئيسـي لعلـم الاجتمـاع من وجهة نظر فيبر من الاعتبارات الأساسية التالية:

- نظرة فيبر إلى علم الاجتماع كعلم شامل للفعل الاجتماعي، ومن تصبح صياغة نماذج الفعل أكثر مستويات النسق التصوري تجريداً وملاءمة للمجال الاجتماعي. إذ يعتمد تصنيفه لنماذج السلطة والسيطرة مثلاً على تصنيف نماذج الفعل الأربعة الأعلى من حيث مستواها التجريدي.
- إن اعتبار علم الاجتماع علماً شاملاً للفعل، يعني أن صفة الشمول تُشتق من تضمنه فهماً للمعنى الذي يخلعه الإنسان على سلوكه.
- تتصل نماذج الفعل عند فيبر بتفسيره لطبيعة المرحلة المعاصرة، حيث أننا نجد أن الخاصية الأساسية للعالم الذي نعيش فيه هي العقلانية.
- يرتبط تصنيف نماذج الفعل لدى فيبر بما يشكل جوهر تفكيره الفلسفي، ونقصد بذلك علاقات الصلة بين العلم والسياسة من وجهة

نظر ماكس فيبر. ويصنف فيبر الفعل الاجتماعي إلى أنماط، وهي على الشكل التالي:

١) **الفعل التقليدي:** ينبني هذا الفعل على العادات والقيم والأعراف والتقاليد، فالأنشطة اليومية، مثل: الأكل بالشوكة أو المصافحة بالأيدي تتأتى من الفعل التقليدي.

٢) **الفعل الوجداني أو العاطفي:** هو ذلك الفعل الذي توجهه العواطف. وبالتالي، فهو فعل غير عقلاني. والأمثلة على هذا النمط من السلوك عديدة حينما يختار المرء الوسائل لا على أساس صلتها بالغايات أو القيم وإنما باعتبارها تنبع من تيار العاطفة مثال ذلك: عقاب الأم لابنها بطريقة عاطفية وانفعالية.

٣) **الفعل العقلاني بالنظر إلى القيمة:** هو فعل يتجه صوب القيم، له درجة عالية من الوعي، ويرتبط بهدف ما ضمن نظام القيم، مثال ذلك: ربان

السفينة الذي يغرق مع سفينته، حين استحالة إنقاذها " **فعل التضحية** ".

٤) **الفعل العقلاني بالنظر إلى الهدف**: يرتبط هذا الفعل بالتخطيط والترشيد العقلاني والتدبير الجيد. أي: يخطط قبل التنفيذ، ويقارن بين الوسائل المتاحة قبل العمل للوصول إلى أهدافه المرجوة، ويحلل النتائج المتوقعة الناتجة عن هذا الفعل المرتقب. بعبارة أخرى نجد أن فيبر يحدد العقلانية بالنظر إلى قدر المعرفة التي لدى الفاعل. مثال ذلك: المهندس الذي يرغب بتنفيذ وتشييد بناء، أو القائد العسكري الذي يختار أفضل الخطط التي تحقق له النصر في الحرب.

ويعني هذا أن فعل الفرد إما تقليدي، وإما عاطفي، وإما عقلاني. فالمستهلك يكون عقلانياً حينما يختار منتوجاً لشرائه حسب دخله المادي، ووفق الأجرة التي يحصل عليها (فعل عقلاني)، وقد يكون مدفوعاً بعاداته الاستهلاكية التقليدية لاختيار منتوج ما (فعل تقليدي)، أو عن طريق رغباته التي لا تقاوم (فعل

وجــداني). وهكــذا تتشــابك الأنمــاط الثلاثــة فــي النشــاط الواحد للفرد (نشاط المستهلك).

تـرتبط هـذه الأنمـاط الأربعـة مـن السـلوك ارتباطـاً وظيفيـاً بأنمـاط العلاقـات الاجتماعيـة: فالسـلوك العقلـي بنوعيـه هـو الفعـل الاجتمـاعي الـذي يسـود المجتمـع عامـة. أمـا السـلوك العــاطفي فهــو خــاص بالجماعــة. فــي حــين إن الســلوك التقليــدي يخــص الإنســانية جمعــاء، وقوامــه جملــة مــن العــادات والتقاليــد التــي قــد تتحــول إلــى ســلطة اجتماعيــة قــاهرة. وتنكــب سوســيولوجيا الفهــم عنــد فيبــر علــى رصــد هـذه الأفعـال فـي المجتمـع المـدروس، بتصـنيفها وتنميطهـا والبحــث عــن دلالاتهــا الظــاهرة والخفيــة، مــع تمجيــد الفعــل العقلاني الهادف والبناء.

بنـاءً علـى مـا تقـدم يتبين لنـا أن تفسير ظـاهرة اجتماعيـة مـا يفرض دوماً عرض الأفعال الفردية التي تتألف منها، وعرض فعل مـا يعنـي فهمـه، وهـذا يعنـي إنـه ينبغـي أن يكـون عـالم الاجتماع قادراً على وضع نفسه محل الفاعلين الذين يهتم بهم، فــ " فهم " فعل الأم التي تصفع ابنها، أو التاجر المتنقل الذي يحضـر ويمـارس الشـعائر الدينيـة، يعنـي أن تكـون قـادراً علـى

الاستنتاج: " إذا كنت في الوضعية نفسها، لكنت فعلت دون شك الشيء نفسه "، وبالطبع لكي تضع نفسك مكان الفاعل، يقتضي بصورة عامة الاطلاع على مجتمعية الفاعل، وعلى معطيات الوضع الذي يوجد فيه أو وجد فيه، وعلى بنية حقل الفعل الذي يتحرك فيه، وهذا لن يتأتى إلا بوجود أداة منطقية أطلق عليها فيبر النموذج المثالي أو الخالص ***Ideal or Pure Type*** ويقصد بها – حسب جوليان فرويد – حاصل الجمع أو التركيز على جانب أو جوانب متعددة في ظواهر منعزلة لتشكيل لوحة فكرية متجانسة، أو هو – حسب تيماشيف – بناء أو تشييد عقلي يتشكل من خلال ظهور أو وضوح سمة أو أكثر أو وجهات نظر يمكن ملاحظتها في الواقع وفي الفقرة التالية سنحاول دراسة وتوضيح مفهوم النموذج المثالي.

رابعاً- النموذج المثالي عند فيبر:

يمثل النموذج المثالي عند فيبر النتيجة المنطقية لتآلف اتجاهات متعددة في التفكير الفيبري، فهو يساعد على التفهم، حيث يُعتبر كل نموذج مثالي تنظيماً لمجموعة من العلاقات الأساسية في سلسلة من الوقائع. وفضلاً عن ذلك نجد أن النموذج المثالي على علاقة بكل من المجتمع والعلم من خلال عملية الترشيد. ومن ثم يعتبر تأسيس النموذج المثالي تعبيراً عن كل المحاولات المتميزة لكل النظم العقلية، والتي تهدف من وراء تأسيسه إلى توضيح موضوع بحثها عن طريق الكشف عن عقلانيته الداخلية وتأسيسها. لكن ما هو النموذج المثالي عند فيبر؟

يذهب فيبر إلى أن النموذج المثالي ***The Ideal Typical*** " عبارة عن وصف منطقي متسق من وجهة نظر محددة. بحيث يؤدي ذلك إلى توضيح علاقات الوسائل بغايات الفعل حتى يساعد ذلك الباحث على تجميع الأفكار أو الارتباطات والتفسيرات المتناثرة في إطار قابل للفهم. بمعنى آخر هو مفهوم مجرد، أو مقولة وصفية عامة تساعدنا على فهم مجموعة من الظواهر والتنظير لها، وليس من الضروري

أن تكون خصائص هذا النمط متوفرة دائماً، وبشكل جيد، في الظواهر الملاحظة والمدركة. ومن ثم فهدف النموذج المثالي هو تكوين نموذج للظاهرة الاجتماعية أو منظور هادف لها. وبعد ذلك استعمل المفهوم من قبل منظري المنظمات الاجتماعية للإشارة إلى الدراسات التجريبية المتعلقة بالبيروقراطية. ولا يحيلنا تعبير المثالي على الجودة والإتقان والحكم الإيجابي، بل هو دليل لبناء الفرضيات، ونموذج لفهم الظواهر المدركة في الواقع، أو تعبير عن الفكر المنظم. والنموذج المثالي هو نتاج لعملية تركيبية لمجموعة من السمات والمواصفات لظاهرة مجتمعية ما، تكون مجردة وعامة، وتصنيفها ضمن نموذج فكري وعقلي ومنطقي متسق. وللتمثيل، حينما ندرس البيروقراطية، فإننا ندرسها في مجالات متعددة، وفي أمكنة مختلفة، لكننا نتحدث عنها بطريقة مثالية عامة، بالتركيز على خصائصها ومميزاتها المجردة والمشتركة في عمومها، لقولبتها ضمن نموذج مفهومي ووصفي ما. أضف إلى ذلك أن النموذج المثالي هو نتيجة لمجموعة من المقارنات والعمليات الوصفية لظاهرة مجتمعية ما. وبالتالي، فالمثالي لا علاقة له بالقيمة، بل يرتبط بمنظومة من

الخصائص والأوصاف والسمات المشتركة الناتجة عن ملاحظة ظاهرة ما. وبتعبير آخر، يعني النموذج المثالي تجريد أو تحويل الظاهرة المجتمعية المدركة والملاحظة إلى نموذج ذهني مجرد في شكل خصائص ومكونات وسمات مشتركة مجردة وعامة. أي الانتقال من المحسوس إلى المجرد المثالي. فحينما يرصد الملاحظ ظاهرة مدركة ما، ومعزولة، فإنه يختزلها في مجموعة من المكونات والخصائص والسمات العامة والمجردة لبناء نموذجها المثالي والمفهومي.

بذلك يتكون النموذج المثالي من العناصر الرئيسية التالية:

١. إنه نظرة جانبية أو جزئية تتم بالنظر إلى الإطار النظري للباحث، وذلك من شأنه أن يترك هامشاً لتأثير التوجيه القيمي للباحث في تحديد العناصر الأساسية للنموذج.
٢. إنه يعبّر عن نظرية أحادية يجرد الباحث من خلالها – انتقائياً – عناصر الرئيسية من الظاهرة الواقعية.
٣. إن هذه العناصر التي يرى الباحث أنها تشكل العناصر المحورية للواقعة أو الظاهرة موضع الدراسة يتم تأسيسها بالإضافة إلى بناء العلاقات المنطقية بينهما في إطار

نظري لـه اتسـاقه المنطقي وقدرتـه علـى المسـاعدة فـي الفهـم والتوضـيح. ويجـدر الإشـارة إلــى أن التحديـد الإيجـابي للنمـوذج فـي كونـه بنـاء مـن العناصـر التـي جردت عن الواقع والتي وضعت مع بعضها البعض، لكي تشكل نموذجاً تصورياً موحداً.

إذن فالأنمــاط الســلوكية، كالســلوك العقلــي، والســلوك اللاعقلــي، والســلوك القيمــي العقلــي، والسـلوك العــاطفي، بمثابـة " نمـاذج أو أفكـار عقليـة مثاليـة: هـي مثاليـة بمعنـى أنهـا ليسـت صـادرة مـن الحيـاة الاجتماعيـة الواقعيـة، لا بمعنــى أنهــا صــادرة مــن ماهيــات مجــردة كــ " مثــل" أفلاطـون علـى سـبيل المثـال. إنهـا نمـاذج مثاليـة لكونهـا مشـتقة أساسـاً مـن الحقيقـة التاريخيـة، تلـك الحقيقـة المعقـدة جـداً، والتـي تعتبـر هـذه التصـنيفات السـلوكية مجـرد تبسـيط لهـا. ومــن هنــا يــدرس علــم الاجتمــاع عنــد فيبــر تلــك الأنمـاط الاجتماعيـة المثاليـة التـي تحـدد طبيعـة تصـورات الإنســان وإدراكاتــه ومواقفــه الســلوكية فــي المجتمــع. وإذا كانـت هـذه الأنمـاط كامنـة حقـا فـي بنيـات المجتمـع، فهـي

مع ذلك، بمثابة أنماط قياسية تحدد السلوك، وتوجه العقل.

وعلى رأس هذه الأنماط المحددة للسلوك الموجهة للفعل، توجد القيم الأخلاقية والدينية، ثم العرف والعادات والقانون، بالإضافة إلى أنماط أخرى ذات طبيعة سيكولوجية كالحب والكراهية والحقد... ومهما كان الأمر، وسواء كان العنصر الموجه للسلوك هو هذا النمط أو ذاك، فإن الفعل الاجتماعي الحقيقي عند فيبر هو السلوك الهادف المرتبط بغاية معينة. أما السلوك الذي لا هدف له، فهو سلوك لا عقلي، سلوك آلي لا قيمة له من الناحية التاريخية."

بذلك فإن النموذج المثالي أداة تصورية وإجرائية أساسية، أو هو بمثابة منهج، أو مقياس، أو نموذج تركيبي، يُستخدم لوصف الوقائع المجتمعية وتقييمها. بعبارة أخرى هو وسيلة موجهة نحو توضيح معنى الموضوع قيد الدراسة، أي إجراء منهجي خالص يطوره الباحث إرادياً وفقاً لحاجات البحث، ويمكن أن يتخلى عنه إذا لم يؤد وظيفته أو يشبع توقعاته.

وقد ذكر فيبر خصائص متعددة للبيروقراطية كنموذج مثالي، وفي تقديمه للنموذج البيروقراطي لم يصف تنظيماً بعينه، ولم يستخدم مفهوم النموذج المثالي بمعنى التقويم الإيجابي، فقد كان هدفه هو قياس درجة البيروقراطية في التنظيم الواقعي، التي تنطبق بصورة أو أخرى على كثير من التنظيمات الواقعية. وهذا هو مصدر الإفادة من نموذج البيروقراطية في الدراسات الامبيريقية الحديثة، ونستطيع أن نعرض باختصار لهذه الخصائص على النحو التالي:

أ- تتوزع أعمال التنظيم بين مختلف الأوضاع باعتبارها واجبات رسمية ويؤدي ذلك إلى زيادة العمل بدرجة ملحوظة، ومستوى عالٍ من التخصص يعتمد على الخبرة الفنية لأعضاء الهيئة بطريقة مباشرة.

ب- تتميز الأوضاع أو الوظائف بما لها من التنظيم في بناء سلطة متدرج، ويتخذ هذا البناء شكلاً هرمياً، يجعل كل موظف مسؤول عن مساعديه، وعما يتخذه من قرارات، ويتحدد نطاق سلطة

الرؤساء على المرؤوسين على وفق قواعد محددة وواضحة تماماً.

ت- وجود نظام رسمي للقواعد يحكم الأفعال والقرارات، ويحقق الاستمرار في العمل، والتنسيق بين أنشطة الأعضاء دون اعتبار لتغيرهم استبدالهم.

ث- اتجاه غير شخصي يحكم علاقات العاملين ببعضهم، أو مع العملاء في نطاق العمل.

ج- يعتمد التعيين على المهارات الفنية، والتعليم الرسمي، أكثر من اعتماده على الارتباطات السياسية والأسرية.

ح- فصل الإدارة عن الملكية، أي العاملين في التنظيم لا يملكون وسائل العمل والإنتاج.

خ- ليس هناك حق لأي شخص في التنظيم في امتلاك المنصب الرسمي ولا في تملك المكتب وما فيه.

د- جميع الإجراءات الإدارية والقواعد والقرارات توضع وتثبت كتابة ومن مجموع المستندات المكتوبة وتنظيم الوظائف الرسمية القائمة، يتكون ما يسمى

(بالمكتب بوصفه شخص معنوي) وهو محور العمل المشترك في العصر الحديث.

باختصار إن النموذج المثالي للبيروقراطية يرتكز على عدة محاور أهمها: وجود درجة عالية من التخصص، وبناء رئاسي للسلطة ينطوي على نطاق محدد للمسؤولية، ونسق غير شخصي للعلاقات بين أعضاء التنظيم، وتحديد العضوية على وفق القدرة والخبرة الفنية والفصل بين الدخل الخاص والمرتب الذي يحصل عليه الفرد بصورة رسمية.

ويُستخدم مصطلح النموذج المثالي أيضاً لدراسة الدين، والأسرة، والسلطة، والنظم الاقتصادية. ويعني هذا أن النمط المثالي هو أداة للفهم وإدراك الظواهر المجتمعية إدراكاً مباشراً وبديهياً و واضحاً. ويرى أنتوني جيدنز أن " النماذج المثالية هي نماذج مفهومية وتحليلية يمكن استخدامها لفهم العالم. وقلما توجد هذه النماذج في العالم الواقعي. وربما لا توجد على الإطلاق. وفي أغلب الحالات تتضح جوانب أو ملامح قليلة منها في الواقع. غير أن هذه النماذج الافتراضية قد تكون مفيدة جداً،

عندما نحاول فهم الأوضاع الفعلية في العالم بمقارنتها بواحد من هذه الأنماط المثالية. وفي هذا السياق تكون النماذج المثالية بمثابة نقطة مرجعية ثابتة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن النموذج المثالي لم يكن يعني بالنسبة إلى فيبر أن هذا التصور قد وصل حدود الكمال أو حقق الهدف المنشود. وما كان يعنيه فيبر أن النموذج يمثل صورة صافية لظاهرة ما، وقد استخدم فيبر هذه النماذج المثالية في تحليله لأشكال البيروقراطية والسوق. وللتوضيح بشكل أبسط، فشخصية " البخيل" في مسرحية موليير شخصية كاريكاتورية، مع أن احتمال أن نلتقيها في الواقع الاجتماعي، لكنها تمثل النمط الأصيل للبخل. هذه الشخصية نموذج مثالي للبخلاء. فالنموذج المثال هو تشييد فكري لا يعكس الواقع التجريبي المرصود، بل يسمح بتحليل مكوناته وخصائصه. وعليه يتم تحصيل النموذج المثالي عند فيبر عبر الربط بين عدد من الظواهر، بتصنيفها وتنظيمها، وترتيبها، ضمن نموذج فكري منسجم ومتسق.

وفـي النهايـة يمكننـا القـول إن النمـوذج المثـالي عنـد فيبـر " **هـو الصـورة النقيـة للظـاهرة يقـوم ببلورتهـا علمـاء الاجتمـاع عـن طريـق الانغمـاس فـي تحليـل المـادة التاريخيـة. وعلـى هـذا تُفهـم الأنمـاط المثاليـة بوصـفها أدوات إرشـادية (تعـين علـى الفهـم). الهـدف منهـا تزويـدنا بقوالـب البحـث السوسـيولوجي، وهـي عبـارة عـن نمـاذج مبـالغ بقصـد تضـخيم جانـب معـين مـن الظـاهر الاجتماعيـة محـل الدراسـة. ورأى فيبـر أن تلـك النمـاذج المثاليـة يمكـن مقارنتهـا بـالظواهر الموجـودة فعـلاً فـي المجتمـع للكشـف عـن بعـدها أو اختلافهـا عـن ذلـك الـنمط. عندئـذ يسـتطيع علمـاء الاجتمـاع دراسـة الأسـباب التي يمكن أن تكون مسؤولة عن هذا الاختلاف** " .

خامساً- أنماط السلطة عند فيبر:

تستند رؤية فيبر للتنظيم الاجتماعي وبصفة أساسية على مفهومه للسلطة ***Authority*** التي ميز فيها بين ثلاثة أنماط. لكن قبل الخوض في شرح هذا الأنماط سنحاول التطرق إلى تمييز فيبر بين مفهومين أساسيين في الصدد هما: مفهوم القوة، ومفهوم السلطة ويتحدد مفهوم القوة لديه من فرصة الإنسان لفرض إرادته على الآخر، حتى لو كان ذلك في مواجهة مقاومة الآخر. من هنا توجد القوة داخل إطار التفاعل الاجتماعي، وتشكل أساس التمايز من خلال من خلال فرصة أحد البشر لفرض إرادته على الآخرين. وتتزايد فعالية القوة أو تتضاءل بالنظر إلى قدرة الفاعل على تحقيق خضوع الآخر لإرادته بدرجة أكثر أو أقل. أما بالنسبة للسلطة فهو يعرفها بفرصة السيد على تحقيق طاعة هؤلاء الذين يدينون نظرياً له. ويكمن الاختلاف بين القوة والسلطة في أن مفهوم القوة لا يتضمن فكرة الحق في الأمر وواجب الطاعة، بينما تتضمن السلطة إمكانية تحقيق الطاعة الإرادية من جانب الخاضعين وهو بالشكل

أساساً لمقولة الشرعية. في إطار ذلك نجد أن هناك نماذج أساسية للسلطة، وهي كالآتي:

١- **السلطة التقليدية:** تعتبر أول نماذج السلطة وهي تعرّف بأنها تقليدية ما دامت مشروعيتها تستند إلى قدسية النظام، أي التي تستند على شرعية الحاكم التقليدي الذي يحترم العادات والأعراف والتقاليد أثناء ممارسة سلطته السياسية، مثل: السلطة الأبوية في المجتمعات البطرياركية، وسلطة الأسياد في المجتمع الإقطاعي.

٢- **السلطة الكاريزمية:** تستند على الإلهام وتنسب إلى هيبة الشخص الحاكم وصورته وصفاته الخارقة " نابليون ويوليوس قيصر " على سبيل المثال، حيث يُعتبر كل منهما مؤسساً لنسق من المعتقدات الذي يتطلب من بين البشر. وفيما مضى ارتبطت السلطة الكاريزمية بالدين، أما في العصر الحديث فإنها تميل لأن تتخذ طابعاً سياسياً

٣- **السلطة القانونية:** يرى فيبر أن أفضل تمثيل لهذا النموذج يتمثل في البيروقراطية، أي أنها تتمثل في

مـدى الإيمـان بسـيادة القـانون واحتـرام الحـاكم للسـلطة القانونيـة، ووصـوله إلـى الحكـم عـن جـدارة واسـتحقاق، كمـا تفتـرض وجـود مجموعـة رسـمية مـن المعـايير المسـتقر نسبياً، والتـي تسـعى إلـى تنظـيم السـلوك كـي يكـون سـلوكاً رشـيداً. بمعنـى آخـر هـدفها الأساسـي فـي تأسـيس مجموعـة من العلاقات بالنظر إلى مبادئ العقل والمعقولية.

طبعـاً، يـدافع فيبـر عـن الفعـل العقلانـي الهـادف، والسـلطة القانونيـة، وهمـا أسـاس الليبراليـة البيروقراطيـة العاقلـة والراشـدة. وفـي هـذا الصـدد، يقـول مـاكس فيبـر: يتطلـع كـل علـم إلـى الحقيقـة. والحقيقـة التـي يتطلـع إليهـا العلـم تكـون إمـا عقلانيـة ورياضـية ومنطقيـة، وإمـا لاعقلانيـة شـعورية. والحقيقـة العقلانيـة، فـي النشـاط والفعـل، هـي قبـل كـل شـيء، فكريـة وواضـحة وتمـام الوضـوح (٢+٢ =٤). وأمـا الحقيقـة اللاعقلانيـة والشـعورية، فـي النشـاط والفعـل، فهـي، قبـل كـل شـيء، وجدانية.

إن الطريقـة العلميـة الفعالـة لفهـم لاعقلانيـة السـلوك الشـعورية، تقـوم علـى اعتبـار اللاعقلانيـة مجـرد انحـراف

عن عقلانية السلوك الخالصة. إن بناء العقلانية الخالصة يمثل نموذجاً ***Type*** يوضع بتصرف عالم الاجتماع، بهدف فهم حقيقة النشاط والفعل المجتمعي الذي تفعل فيه لاعقلانيات من كل الأنواع والأشكال. بناءً عليه يرتبط الفعل العقلاني السلطة القانونية والنظام البيروقراطي. وهذه هي الأسس الحقيقية لليبرالية الرأسمالية المتقدمة والمزدهرة حسب (ماكس فيبر).

سادساً- تقييم ماكس فيبر:

* نقاط القوة:

١- تدلنا أعمال فيبر على أن التحليل البنائي لا يستطيع وحده أن يقودنا إلى فهم المجتمع على النحو الأمثل. ولأنه استطاع أن يجسر الهوة بين الدراسة الاجتماعية للوحدات الصغرى والدراسة الاجتماعية للوحدات الكبرى، فقد تمكن من تقديم نظرية في المجتمع تربط قيمة التحليل العلي بأهمية الدوافع الفردية للسلوك.

٢- لا شك أن اتساع نطاق اهتماماته العلمية أمر مثير للإعجاب. فقد حرص على أن يطبق أفكاره في دراسة

عـدد مـن مجـالات الحيـاة الاجتماعيـة، واسـتطاع أن يحـرز نجاحـاً ملحوظـاً فـي ذلـك. وقـد كانـت بحوثـه تلـك مصـدر إلهـام لكثيـر مـن الدراسـات السوسـيولوجية فيمـا بعـد مـن نواح مختلفة.

* **أوجه القصور:**

١- رغـم تأكيـد فيبـر علـى أن اهتمامـه الأساسـي كـان منصـباً علـى الاهتمـام بـالمعنى، إلا أن أغلـب أعمالـه قـد ركـزت – فـي الواقـع – علـى دراسـة الأبنيـة الاجتماعيـة الكبـرى. ولـذلك كـان هـذا التجـاوز بـين كـل مـن القصـد والبنـاء مثيـراً للـبس فـي أحسـن الأحـوال، وعصـياً علـى الفهـم في أسوأ الأحوال.

٢- لاشـك أن تـأرجح فيبـر بـين الاتجاهـات الكبـرى فـي التحليـل (المـاكرو) والاتجاهـات الصـغرى (المـايكرو) قـد جعلـت أعمالـه محـلاً للنقـد مـن جانـب الفـريقين. إذ يـدين البنيويـون مفهومـه عـن الفهـم التـأويلي بسـبب افتقـاره – فـي رأيهـم – إلـى المصـداقية الامبيريقيـة، كمـا يعيـب أصـحاب علـم الاجتمـاع التـأويلي علـى بعـض الجوانـب البنائيـة لبحوثه إغفالها لدور الأفراد في التأثير على بيئتهم.